

528- يوم إبداعى الشخصى... حدث من واحد وأربعين عاماً!

قبل النص

حدث أثناء مراجعتى "تجارب" (بروفات) "كتاب العلاج النفسى من خلال الإشراف عليه" الذى جمع أول ثلاثين نشرة من باب "التدرب عن بعد" فى نشرات الإنسان والتطور أننى لاحظت أنه ورد فى الحالة رقم (17) حالة ذلك الصبي الذى سرق من أمه مبالغ كبيرة من النقود (عدة آلاف). وكنت أرد على مداخلة حول هذه النشرة تقول: أن هذه السرقة، ومن الأم دون غيرها، قد تكون محاولة من جانب الصبي أن يعلن أمه أنها لم تعطه حقه فى الرؤية أو الدفء أو الحنان أو الاعتراف، رددت على الصديق المعقب بأنى أوافق رأيه، ثم تذكرت أننى قد خطر لى مثل هذا التأويل لهذا العرض (السرقة من الأم بالذات) فى أول عمل لى، شبه قصصى باسم "عندما يتعري الإنسان"

كنت قد خاصمت هذا العمل طويلاً حيث تصورت أن به من "الحكمة" و"الخطاب المباشر" أكثر مما به من التشكيل والإبداع، رجعت إلى هذا العمل الذى لم أقرأه، برغم أنه قد أشاد به - شفاهياً - كثيرون من بينهم محمد ابني والناقد الحاذق يوسف الشارونى. أما أنا فكانت دائماً أرفض الإشارة إليه، أو الإقرار بقيمته للأسباب السالفة الذكر، رحت أبحث عن الحكاية التى أشرت بها فى ردى على الحالة (17) فلم أجدها (حتى الآن).

فوجئت وأنا أفعل ذلك بالمقدمة وكأنى كتبتها اليوم، مرة ثانية مضى على كتابتها 41 عاماً واحد وأربعين عاماً، فوجدتها كأنى أقدم بها نشرة الإنسان والتطور (نحْن الآن فى العدد 528) وكأنى لم أغير منذ هذا التاريخ (هل هذه ميزة أو عيب)؟

قلت أختار من هذا العمل إحدى هذه الحكايات القديمة وأنشرها هنا اليوم (يوم إبداعى الخاص) لكننى حين مررت على المقدمة مرة ثانية شعرت أنها أولى بالنشر، بالرغم من أنها ليست إبداعاً صرفاً.

كتبت هذا الكتاب على نهج "كليلة ودمنة" أقدم به لكل قصة مغزاها وهدفها، (وكان هذا من بعض ما خاصمت العمل من أجله) وكنت قد صدرت هذا العمل بكلمة برزوية وهو يقول:

" . . . من قرأ هذا الكتاب، ولم يفهم ما فيه،
 ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا، لم ينتفع بما بدا له
 من خطه ونقشه، كما لو أن رجلا قدر له
 جوز صحيح لم ينتفع به إلا أن يكسره"
 برزويه (رأس أطباء فارس)
 كليلة ودمنة

اطمأننت بعد واحد وأربعين سنة، وتصورت أن أصدر قول
 برزوية لكل من يتهمني بالصعوبة أو الغموض.

من المقدمة

.....

على لسان الخيوان تعلمنا الحكمة، وقال بيدبا الفيلسوف
 لدبشليم الملك حكمة الأمس. .
 وحكمة اليوم أبعد منا وأصعب تحقيقا... فهي أشهد اختلاطا
 بالوهم من أي وقت مضى، وبذلك فهي أقل تحديدا ووضوحا.

.....

وقد حاولت أن أبحث عن حكمة اليوم في حديثي مع أصدقائي
 المرضى ووجدتها في كل مرة بلا استثناء، وحين كنت أعجز أن
 أراها، كنت أعلم أنني لم أفهم لدرجة كافية، أو أنه -
 صديقي المريض - لم يعان لدرجة كافية. .

وسأحاول في هذه اللقطات أن أعرض بعض زوايا من صور
 الإنسان حين يتعري ليهيم على وجهه باحثاً عن حقيقة ذاته،
 وإنني إذ أعرض هذه الصور التي لا تصف إنسانا بذاته، أرجو أن
 يقبل القاريء ابتداء صداقه أصدقائي، فهم أعز عندي من أن
 أعرض صورهم إلا على أصدقاء، رغم أنه لا توجد لقطة واحدة
 يمكن التعرف على صاحبها الحقيقي احتراما وعهداً.

قال أحد هؤلاء الأصدقاء، "الفتى الذي اتضحت رؤيته
 وأستقام على الطريق":

- أما وقد انتهى بنا المطاف، فهلا حدثتني عن بعض ما علمت
 من أمور النفس وأحوالها لعلني أتعلم منك ما لن أجده عند
 غيرك، وربما نفعت به غيري.

قال الحكيم:

- أما عما رأيت فهو كثير كثير، ليس أكثر منه إلا ما لم
 أراه، أما ما عملت فهو أقل مما رأيت فليس كل ما رأيت

على أن الكلام كالسكين ذي الحدين: قد يأتي منه الضرر من حيث ترحو به النفع، وبما أنه ليس هناك وسيلة للتعامل أفضل من الألفاظ في مجالنا هذا، فلا بد من الحذر ونحن نرسل الكلام، ولا بد من الحرس وأنت تسمع الخبر،

ولتأخذ منه ما تحس أنه وافق مكانا صالحا في فكرك، ولا تقحم على نفسك ما لا ترتاح إليه طبيعتك، وبهذا ينتقى كل من الحديث ما يصلح له أو يصلح به، لأنه ليست للتجارب قواعد ثابتة وإنما هي أمثلة تنفع أو لا تنفع، فانك إنما تسمع مني جانباً من رؤيتي لكيان ما، في لحظة ما.. ثم إن هذه الصور قد تصل إليك بإحساس حي يجعل إدراكها كواقع قائم أمر سهل ومفيد؛ أو هي قد تظل ملساء مسطحة لا تدرك منها إلا بعد الصورة. وفي هذه الحالة فلا فائدة منها وما هي إلا رواية تتناقل مثل بعض القصص الجوفاء...

أما أن تنفع الناس بدورك، بما تسمع وتعي،

فإنك إنما تفعل ذلك إذا أدركت ما راق لك فعشته وتمثلته، ثم حفظته ووعيته، ثم كان جزءاً من كيانك ونفسك... فإنه لا محالة ينضج بالخبر على غيرك، وإنما تنتشر الحكمة إذا كانت هي الحقيقة، وإنما تتأصل الحقيقة إذا اختلطت بالذات لتصبح إيماناً، ثم يكون الإيمان عملاً طبيعياً تلقائياً سلساً.

على أني يا بني لا أطمع في الكثير،

فإن بهذا الحديث ألقيت في بحر الركود والظلام حجراً شحنته بكل ما أحمل للانسان من حب، ومهما كان الحجر صغيراً فأملئ أن يهز الصفحة الراكدة فتنزاح دائرة صغيرة لتصبح دوائر متتابعة.

فإذا خرجت من هذا الحديث كله ببضع من الناس مثلك يا بني، اكتملت يقظتهم إذ هزتهم الحقيقة فساروا على الطريق حتى نهايته... أو إذا أثرت به علامات استفهام وتعجب عند بضعة عشرات آخرين يعقبها أنه "ربما"... أو حتى إذا هيجت به الرفض للقديم والجديد معا عند بضعة مئات، إذا تم هذا أو شيء من هذا فقد حققت ما أردت.

كما أوصيك - بني- ألا تتعجل الحكم على الأمور، فأنت لن تدرك أول الحديث إلا بآخره، لأنه حديث يكمل بعضه بعضاً، فأسألني يا بني ما شئت وسأجث لك في جعبتي عما يشفي غليلك.

ثم رحلت فأقلب بين الحكايات لأختار إحداها لتمثل إبداعاً مضي عليه هذا الزمن كله.

.....

وحين احترت أن أختار أيها أولى بالنشر.

أجلت نشر النص إلى الأثنين القادم.

عذرا